الـــتـــبـــادل

تقديم:

يتلخص مبدا التبادل إعطاء شيء مقابل شيء اخر قد يكون مكافئا او غير مكافئ له، فهو إذن عطاء واخذ او اخذ وعطاء، وليس هناك تبادل بالعطاء فقط او بالاخذ فقط، فالسرقة والسلب ليسا تبادلا فهما اخذ فقط، وكذلك التبرع والتصدق وتقديم المساعدة ... وينطبق الامر كذلك على كل إجبار على العطاء دون الاخذ او العكس.

إن التبادل من اهم اليات تشكل البنيات نتيجة مشاركة بنيتين او اكثر في الاخذ والعطاء، فالتبادل هو الذي ينشئ التجادب وبالتالي الترابط ضمن بنية واحدة . ان ما معي يجدبك لكي تاخده وتضمه إليك وكذلك ما هو معك يجدبني لكي اخده وهدا ينشئ قوى تؤدي إلى إجراء التبادل، وبعد إجراء التبادل ينتفي التجادب إلا إذا كانت هناك قوى لتبادل جديد، فتكرار الاخذ والعطاء لا بد منه لاستمرار التجادب.

و لا يقتصر التبادل على تبادل الخيرات او المنافع المادية بل يتعداه إلى تبادل رمزي للافكار والمعتقدات وانماط السلوك...

ويمكن القول إن التبادل المادي يتضمن تبادلا رمزيا لان كل سلعة تكون موضوعا للتبادل تحمل في طياتها علة ومنطق ورؤية صانعها.

- فما هي اسس التبادل؟
- ما العلاقة بين التبادل والمجتمع؟
- لمادا لا يكتفي الإنسان بالتبادل المادي فحسب؟

http://netcour.online.fr

التبادل خاصية إنسانية صرف

لماذا يتبادل الإنسان و لا تتبادل الحيوانات؟

يقول ادم سميث: (لم نر قط كلبين "يتفاوضان" في امر اقتسام قطعة عظم. لم نر ابدا ان حيوانا يحاول "إفهام" حيوان مثله، مستخدما صوته او حركات جسمه، فيقول له: "هذا لي، وهذا لك، ساعطيك مالي مقابل ان تعطيني ما لك...)

ينطلق ادم سميث من هده الملاحظة المقارنة بين الإنسان والحيوان ليخلص إلى ان التبادل خاصية إنسانية بامتياز، لان التبادل يستلزم الحوار واللغة والتفاوض والتفكير في الاحجام والقياسات والمعادلات... وكل هذا مرتبط بالفكر والعقل. والحيوانات لا تستطيع مجاراة الإنسان في هدا المجال.

وبما ان التبادل خاصية إنسانية، فإنه لا يتاسس على العاطفة او الشفقة او الرحم... بل يتاسس على مبدا العطاء والاخذ. فكون الإنسان اجتماعيا، يعني الدخول في علاقات مع الاخرين و تبادل المنافع معهم. وإذا ما اعتمد الإنسان فقط على مساعدة الاخرين وعنايتهم به، فإنه لن يضمن إشباع حاجياته باستمرار. لذلك يستحسن ان يقدم الفرد للاخرين خدماته لقاء الحصول على خدماتهم. وبهذه الطريقة يتاسس التبادل على مبدا الخدمات المتبادلة على اساس إشباع الاحتياجات المتبادلة.

يقول سميث: ("اعطيني ما احتاجه منك، وساعطيك انت ما تحتاجه مني". بهذه الطريقة يتم الحصول على الجزء الاكبر من هذه الخدمات النافعة والضرورية بين الناس).

بيد ان ماركس يرى ان التبادل يتم على اساس مبادلة القيمة الاستعمالية بالقيمة التبادلية للخيرات. فالنجار ليس بحاجة لكل تلك الابواب التي يخرجها للوجود بعمله. إنه بحاجة إلى خيرات وسلع من نوع اخر. اي ان الابواب التي يصنعها لا تمثل بالنسبة إليه قيمة استعمالية، بل تمثل قيمة استعمالية عند اخرين (سباك، بقال، موظف...). لذلك يبحث الاخرون عن القيم الاستعمالية للاشياء و يبادلونها بالقيم التبادلية للاشياء التي ينتجونها.

لقد شكل التبادل اساس القيم الإنسانية منذ بداية الحياة الاجتماعية. ف"لكل شيء ثمن وكل شيء يشترى" كما قال نيتشه.

http://netcour.online.fr

التبادل والروابط الاجتماعية

كيف يعمل التبادل على تاسيس الروابط الاجتماعية؟

يرى كلود ليفي ستراوس ان التبادل او التواصل داخل كل مجتمع يجري على ثلاثة مستويات:

- مستوى القرابة: من خلال الزواج
- مستوى الاقتصاد: من خلال المبادلات التجارية والنقدية
- مستوى الرموز: من خلال اللغة والاثار الادبية والفنية

إن الدافع للمبادلة بين البشر هو ان قدرات البشر المختلفة والظروف المختلفة لا تسمح لهم بالحصول على كافة حاجاتهم بسهولة متساوية، (ارسطو، ابن خلدون)، فإنتاج السلع والخدمات، او توفرها، غير متساو لدى البشر، فالإنسان الذي يسهل عليه الإنتاج الزراعي يمكن ان يصعب عليه الإنتاج الصناعي ، فلكل إنسان قدراته وظروفه التي تؤهله او تسمح له بإنتاج او امتلاك سلع او خدمات دون اخرى، وكذلك الجماعات والدول لكل منها قدراتها وظروفها التي تحدد إنتاجها وامتلاكها للسلع والخدمات، وهذا ما يستدعي الحاجة للمبادلة فيما بينهم. ويجب لكي تجري مبادلة ان تختلف شدة الحاجة إلى السلع او الخدمات المراد تبادلها ، بالإضافة إلى اختلاف الكم المتوفر منها، فتوفر الهواء او الماء المتاح للجميع مع ان الجميع بحاجة إليهما لا يستدعي إجراء مبادلة عليهما، وكذلك إذا كان لدي نقود ولديك ايضا نقود ونحن معا بحاجة إلى طعام، فلن تجري مبادلة بيننا.

كان التبادل قبل ظهور السوق مجرد إنتاج عائلي وعطاء متبادل وإعادة توزيع. لكن مع تطور الإنسان ظهر السوق بوصفه نظام توزيع وتبادل ونمت معه انماط التبادل التجاري التي جلبت معها التحضر والاخلاق المهذبة والسلام والوئام حتى بين الشعوب المتباعدة والمتنافرة لاسيما في حوض البحر الابيض المتوسط. يقول مونتسكيو : "إن الاثر الطبيعي للتجارة هو الوصول إلى السلام. فامتان تتفاوضان فيما بينهما، هما امتان ترتبطان برباط متبادل...". لكن الحديث عن التبادل لا يكتمل دون الحديث عن النقود ودورها الاساسي في عملية التبادل.

يرى ماركس ان النقود لعبت دورا حاسما في تاريخ التبادل. لقد كان التبادل يتم بواسطة المقايضة قبل ظهور النقود، اي ان طرفي التبادل يدخلان إلى السوق فيتبادلان سلعتين مختلفتين في نفس الان. اي ان الاخذ والعطاء يتمان في لحظة واحدة. بيد انه مع ظهور النقود اصبح من الممكن مبادلة السلعة بمقبلها النقدي، وتاجيل الحصول على المقابل السلعي إلى ما بعد. وهذا ما، مكن حسب تحليلات ماركس، من تجاوز العلاقة: سلعة – نقود – سلعة (البيع من اجل الشراء)وبروز العلاقة: نقود – سلعة – نقود (الشراء من اجل البيع). العلاقة الاخيرة ساهمت في تراكم راس المال، وظهور نمط الإنتاج الراسمالي.

التبادل الرمزي: الهبة نموذجا

تستعمل مفردات الهبة والهدية والعطية والصدقة في نفس المعنى لانها تتضمن كلها معنى العطاء والمنحة. لكنها هذه المفرادات تختلف من حيث الدلالة اللغوية:

- فالهدية هي الشيء الذي يحمله يمنحه الإنسان للغير إكراما له وإجلالا. إنها تتضمن معنى المنح والحمل.
- واما الهبة فهي منح من دون حمل. إنها في الاصل تمليك، ويَقصد بها تمليكَ الغيرِ المال الذي يملكه الواهب على سبيل المعروف والإحسان.
- واما بالنسبة للعطية: فهي عطاء مع وقف التنفيذ إلى حين وفاة الشخص الذي اعطاها. فالعطية تكون لما بعد الموت.
- واما الصدقة: فهي منح او عطاء يبتغي من وراءه صاحبه اجرا معنويا في العالم الاخر.

تمنح الهبة والهدية وحتى العطية نسبيا بغرض كسب القلوب والتعاطف والمودة، اما الصدقة فيبتغى بها تحقيق المكاسب المعنوية في العالم الاخر حسب المعتقدات الدينية.

فما هي وظيفة الهبة في التبادل الرمزي؟

في دراسته لنظام البوتلاتش، و هي دراسة لمارسيل موس عن بعض قبائل الهنود الحمر التي تعيش في الجزء الشمالي الغربي من امريكا، وهذه القبائل هي : الكيوكتيل، الهايدا، والتسمشيان، لاحظ ان النظام الاجتماعي يرتكز في اساسه على ان يقوم الشخص من ذوي المكانة والمركز الاجتماعي في هذه القبائل بتوزيع نوع معين من الاغطية الصوفية على الضيوف في حفل رسمي كبير. وبعد فترة من الزمن يرد الضيوف هذه الاغطية في حفل رسمي كبير ايضا بعد إضافة اعداد اخرى كبيرة منها قد تصل إلى اضعاف ما اخذوه منه في الاصل. وهذا التبادل الذي يتم بين افراد المجموعة يصاحبه دائما بعض الطقوس والشعائر. وفي هذه المجتمعات تتضمن الهبات نوعا من الإلزام حيث يتوجب

http://netcour.online.fr

على الموهوب له ان يرد الهبة وباحسن منها. والامتناع عن القيام بهذا السلوك قد يزعزع المركز الاجتماعي للشخص ويقلل من هيبته ومكانته.

فهذه الطقوس تعمل على حفظ حقوق اطراف العلاقة في الاخذ والرد ولذلك فإنها تحقق الاستقرار وتدعم اواصر العلاقات داخل مجتمع القبيلة. بالإضافة إلى ان هذا النظام الشعائري يهدف إلى اكتساب المزيد من الشرف والسمعة الطيبة وذيوع الصيت عن طريق المنح والإعطاء والمبالغة في الرد والدليل على ذلك ان الشخص كثيرا ما يلجا إلى إحراق هذه الاغطية ذات القيمة الاجتماعية العالية واحيانا اخرى قد يحرق بعض ممتلكاته ليدلل على استهانته بالاشياء المادية ويدعو غيره من الاشخاص الذين يحضرون حفل البوتلاتش إلى مجاراته في اعماله. كلما احرق او اتلف الشخص هذه السلع المادية كلما ارتفعت مكانته في المجتمع. وهذا هو نسق العطية.

ان نظام البوتلاتش يساعد على إشباع الحاجة التي يشعر بها الشخص للحصول على المزيد من السمعة وذيوع الصيت. فهو نظام شعائري تدخل فيه الكثير من الطقوس التي ترتبط فيها الانظمة الاقتصادية في المجتمعات البسيطة ارتباطا وثيقا بالانظمة الاجتماعية. إن تبادل الهدايا في البوتلاتش يتم بشكل إرادي على الرغم من وجود صفة الإلزامية فيه، وإن عمليات التبادل لا تخلو من ابعاد اقتصادية تتمثل في وجود مفهوم القيمة في هذه التبادلاتالتي تتم بهدف الحصول على المكانة الاجتماعية والهيبة اكثر من الحصول على السلع المادي.ة إن الطقوس والشعائر التي تمارس في البوتلاتش تحافظ على الاستقرار الاجتماعي لانها تنظم قضية الاخذ والرد وتدعم اواصر العلاقات بين القبائل في الوقت الذي تحتل العلاقة بين السلع منزلة ثانوية بالنسبة للعلاقة بين الاشخاص.

اما مالينوفسكي، في دراسته لنظام تبادل الكولا الذي يمارس في جزر التروبرياند في المحيط الهادي وفي بعض جزر واستراليا، فقد لاحظ ان الكولا نظام شعائري تتبعه بعض القبائل التي تعيش في منطقة جزر واحدة وتنتشر على شكل حلقة وتكون دائرة مغلقة للتبادل. وفي نطاق هذه الدائرة يتبادلون مجموعتين من السلع. مجموعة السولافا "المحار" ومجموعة الموالي "إسورة " وتسير السولافا في اتجاه عقارب الساعة بينما تسير الموالي في الاتجاه المعاكس ويتم تبادل هاتين السلعتين في كل نقطة من نقاط الدائرة. ويتبع ذلك حفلات ومراسيم وطقوس وسحر. ويقوم الزائر وخاصة إذا كان من ذوي المكانة الرفيعة بتقديم هداياه من النقود مثلا للشخص الذي اعتاد التبادل معه وياخذ معه في مقابل ذلك بعض الاساور التي تهدي إليه نظير هديته في هذا الحفل الرسمي الكبير الذي اقامه اهل الجزيرة. والمشاركون في عملية التبادل هذه يستلمون الاشياء لفترة من الزمن ولكنهم لا يستطيعون ان يحتفظوا بها إلى الابد لانه يتوجب عليهم تمريرها في خط السير المرسوم لها كما تجري العادة. وقد يذهب الرجال في رحلات الكولا خالي الوفاض لا يحملون اي هدايا ليقدموها إلى شركائهم بل ليقدموا بذهابهم تذكرة بان عليهم دين شرف قد ان اوان سداده . يتحقق النجاح في الكولا كما يظن من يمارسونها بإجراء طقوس سحرية لتهدئة الشريك وجعله يشعر بانه كريم يستطيع ان ينتظر. والاسس التي يقوم عليها هذا التبادل المؤجل هو ان كل هدية تقدم يجب ان تساوي الهبة المستلمة. وهذا واجب مقدم الهبة فهو الذي يجري التقديرات .ويحدث احيانا ان يتاخر الشخص في رد الهبة المناسبة ولذلك يتوجب عليه ان يقدم بعض الهدايا الصغيرة من حين لاخر حتى تتاح له فرصة تقديم الهبة المناسبة. والملفت فيها ما يدل على تفكير الناس في امور الربح والكسب والمساومة. ومع ان الكولا يصحبه احيانا نظام مقايضة تجاري ثانوي لسلع تجارية ضرورية وكذلك يصحبه تبادل هدايا وخدمات إلا ان هذا التبادل التجاري ليس هو الاساس الذي تقوم عليه الكولا. ويميز الاهالي بين الكولا والمقايضة ولذلك يعيبون احيانا على الشخص طريقته في تبادل الكولا فيقولون انه " يقوم بالكولا كما لو كان يقوم بعملية مقايضة " فهذه

http://net-cour.online.fr

العملية ليست عملية تجارية تقوم على المساومة او إلى حساب او تقدير قيمة الهبة. والمبدا الاخر هو ان العرف والتقاليد تحتم على الرجل الذي يقبل هبة من شخص اخر ان يرد إليه ما يقابل هبته ولكن لا يتعرض هذا الشخص لاي نوع من القهر او القسر او الضغط المادي لرد الهبة بمثلها. ويرى مالينوفكسي ان شريك الكولا يشتري المجد كما يشتري الصداقة فشركاؤه الذين يعيشون في جزر نائية يستطيع ان يعتبرهم حلفاء ويتوقع منهم الحماية. فالمكاسب الاجتماعية بما فيها الحصول على الشهرة والصيت هي الاساس في هذه العملية. فالهبات المتبادلة في هذه الحالة تؤكد الروابط الاجتماعية والهدايا لا تعطي اعتباطا وإنما هي تقدم لمقابلة بعض الالتزامات الاجتماعية المحددة .فتبادل الهدايا والنزول عن التروة في هده الجزر كثيرا ما يعبر عن سمو مركز الشخص الدي يعطي عن الشخص الدي ياخد.

إن نظام الكولا ينطوي في المقام الاول على مضمون اجتماعي اساسه توطيد اواصر الصداقة والعلاقات الطيبة بين سكان الجزر.كما انه يحقق لاطراف التبادل الحصول على الصيت والسمعة نتيجة لتنازل الشخص عن بعض الاشياء دات القيمة الرفيعة لاصدقائه. فصور التبادل الشعائري التي تتم في جزر التروبرياند لا يوجد فيها ما يدل على تفكير الناس في الربح او الكسب او النفع الشخصي بل تحيل على وجود توقعات اجتماعية والتزام اجتماعي في تبادل ورد الهدايا في هده الجزر.

على الرغم من بساطة هذا النظام إلا انه ينطوي على كثير من العناصر والعلاقات المتشابكة، فالمبادلة يجب ان تتم في جو تسوده الرسميات والتكلف والجد والوقار ويجب الاستعداد له بالقيام بالشعائر المختلفة لتامين الرحلة البحرية والمسافرين من مخاطر البحر.

يتبين من خلال هاتين الدراستين ان الهبة:

1- تتجاوز التبادل المادي وتعبر عن تعاقدات والتزامات اجتماعية.

2- تؤسس علاقة تبعية الموهوب له للواهب، وتضمن التفوق الاجتماعي للواهب.

3- هي في حد داتها سلطة رمزية في يد الواهب (او الزعيم) يفهر بها منافسيه.

http://netcour.online.fr